منهجية التعامل مع النص (٣)

ما المقصود من النص؟ هل النص المقدس أم النص الديني؟ كيف يمكن الجمع بين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وروايات الأئمة المعصومين (عليهم السلام) عند الشيعة خصوصًا؟

هنا يمكننا التوقف عند رؤيتين أساسيتين :

الأولى : تقول بأنه لا دور ولا أثر للمفسر أو القارئ في النص؛ لأن مراد الناص واضح فيه.

الثانية : ترى أن للقارئ أو المفسر الحق في أن يفسراه كما يفهمانه، انطلاقا من أصالته والمسئولية التي تترتب عليه دون الخوف على مراد الناص منه. ولا شك بإمكانية هذا التعامل مع نص أدبي أو تاريخي أو فلسفي أو فني، أما فيما يتعلق بالنصوص المقدسة، وبالتحديد القرآن الكريم فإن هذا الأسلوب ليس فقط غير مقبول أومحبب، بل سيواجه بالانتقاد والرفض. وإن تفسير القرآن الكريم بالرأي، أي أن تحمل رأيك على الآيات، هو تفسير مرفوض وغير صحيح فضلاً عن قصور وسائل النظر وعدته عند البعض.

إن المفسرين الكبار - والمعروفين - للقرآن الكريم، من المتقدمين والمتأخرين - السنة أو الشيعة كان لديهم أذواق أو سلائق فلسفية أو صوفيّة، أو تاريخية أو روائية، أو أدبية ولغوية، أو علمية تجريبيّة، لم يدعوا إلى تحميل أو فرض آرائهم على القرآن الكريم. وقد أكد كل واحد منهم في مقدمة تفسيره أنه يسعى لفهم

Obeikan.com

حقيقة القرآن الكريم، ومن هنا نشاهد كل هذا الاختلاف في تأليف وتنظيم تفاسير مثل :

١ ـ تفسير الطبري

٢ ـ تفسير التبيان

٣ ـ التفسيرالكبير للإمام الفخر الرازي

٤ ـ تفسير ابن عربي

٥ ـ تفسير مجمع البيان

٦ ـ تفسير البرهان

٧ ـ تفسير البيضاوي

٨ ـ تفسير القرطبي

٩ ـ تفسير في ظلال القرآن لسيد قطب.

وكل هذه الاختلافات مبنية وتعتمد على المنطق والمكانة العلمية ومقتضيات الزمان والمكان، وإن توقعات المفسر من النص الديني تتأتى بدافع السعي لمعرفة الحقيقة. واختلاف الآراء باعتقاد الشيخ محمود شبستري في " كلشن راز ـ حديقة الأسرار " جاء بناء على أن " الكلام يقع على السامع على حسب منزلته، وهذا ما سبب المشاكل في أذهان الخلائق.

إن من أهم الأسئلة التي تطرح في هذا المجال هي: لماذا يوجد اختلاف في الاستنباط أو الاستنتاج أو التفسير أو القراءة؟ أليس هناك تأثير أوجده النص في هذا المجال ؟ بتعبير آخر: لماذا يعتبر القرآن الكريم كتابًا قابلاً للتأويل بحيث يمكن اعتبار جميع آياته محكمة، وفي الوقت نفسه متشابهة وقابلة للتأويل. القابلية للتأويل هي بحيث تسمح بأن يكون لدى أي من الفريقين استنتاجه الخاص، وبحيث تسمح للجبريين والقدريين بالاستمرار في جدلهم إلى

obeikan.com

يوم القيامة وأن يجد كل منهم الأدلة على ما يدعيه. وقد نقل الفيض الكاشاني في تفسير " الصافي " رواية عن أمير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ توضح الأبعاد المتعددة للقرآن الكريم، وتطرح أيضًا موضوع البحث عن مراد الله، تعالى:

" ما من آية إلا ولها أربعة معان، ظاهر وباطن، وحد، ومطلع. فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم، والحد هو أحكام الحلال والحرام، والمطلع هو مراد الله من العبد بها ". (١)

وقد ورد تعبير الظاهر والباطن حول القرآن بالتفصيل في المصادر الإسلامية السنية والشيعية. في أصول الكافي، روى السكوني عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن اجداده أنهم قالوا: " للقرآن ظاهر وباطن، ظاهره حكم وباطنه علم، وظاهره عظيم وباطنه عميق ". (٢)

وقد أورد السيوطي التعبير نفسه في "الإتقان" من أن لكل آية ظاهرًا وباطنًا.(٣)

واعتبر السيوطي أن التأويل هو البحث عن حقيقة المراد، وأن التفسير هو إخبار عن دليل المراد، واللفظ يرشد للكشف عن المراد. بتعبير آخر: إن كل مفسري القرآن الكريم سعوا للبحث عن مراد الله ـ الناص ـ والوصول إلى حقيقته.

هل يظهر مراد الناص واضحًا وجليًا أمام القارئ؟ كما يفعل الجواهري ببضاعته الثمينة، عندما يسهب في الحديث عن مميزاتها أمام أعين المشتري؟ أم أن القارئ يجب عليه أن يبذل الجهد ويسعى لتهذيب نفسه حتى يستطيع الوصول واكتشاف جوهر مراد الناص وحقيقة النص ومقصوده؟

إن التأكيد على بعدي الظاهر والباطن للآيات،هو أفضل دليل أو شهادة على أن الباطن يحتاج إلى بحث وتدقيق وتفكير مستمر، حتى يستطيع المفسر أن يتعرف على جوهر المعنى ويستخرجه من صدف ظاهر الآية وهو يغوص في أعماقها.

Obeikan.com

في حين أن البعض تسمر في إطار الظاهر في مواجهة النص، وقد اتخذ موقفًا محايدًا عند وجود مفهومين مختلفين لبعض الآيات. وقد نقل ابن قتيبة عن قاضي البصرة عبيدالله بن الحسن قولاً يستحسن التوقف عنده :

" إن كل ما جاء في القرآن هو الحق، وإن كان يدل على الاختلاف. فالقول بـ" القدر" صحيح من وجهة نظر أصحابه وله "أصل" و " دليل " في الكتاب. والقول بـ «الجبر» صحيح أيضًا وله أصل ودليل أيضًا. وكل من يقول بالقدر فهو على صواب وفق رأيه هو، والذي يقول بالجبر أيضًا على صواب في منتهي نظره؛ لأن آية واحدة أحيانًا تدل على وجهين، وتحتمل معنيين متضادين في الظاهر.

وقد سئل هذا القاضي يومًا عن القدريين والجبريين، فقال: كلهم على صواب، فريق يرى أن الله كبير، وفريق يعتقد ويؤمن بأن الله منزه. وتحدث بالشيء نفسه عن الأسماء، فقال: إن الذي يعتبر الشخص الزاني مؤمنًا هو على صواب، والذي يعتبره كافرًا هو على صواب أيضًا. والذي يقول إنه فاسق، ليس مؤمنًا أو كافرًا فهو على صواب، والذي يقول إنه كافر مشرك هو أيضًا على صواب، لأن القرآن يدلل على هذه المعاني، وذلك من باب احتمال ظاهر الدلالة لهذه المعاني دون القطع بحقيقة الدلالة المرادة وفق أصول الاجتهاد الصحيحة، ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا [المائدة:٤١] وإن كان كلٌ مأجورًا؛ لأنه يبغي وجه الله."

وعندما نرى أثر هذه النظرية في الأبعاد الاجتماعية والسياسية فلا بد من التوقف عندها لما فيها من المفارقات. وإن المعارك التي حدثت بين علي - عليه السلام - وطلحة والزبير كلها كانت في سبيل الله تعالى."(٤)

وقد أشرت سابقًا إلى أن الغزالي كان يعتبر أن حرب علي - عليه السلام - ومعاوية هي نوع من الاختلاف في الاجتهاد.

وعندما يبتلى البعض بالجمود أمام ظاهر الآيات والروايات، فإن نتائج ذلك ستكون خطيرة في المجالات الاجتماعية والسياسية والثقافية، وستضعنا أمام

ظاهرة التحجر والجمود عند الظاهر، وهذا بحد ذاته يعتبر مرحلة مليئة بالحسرة والأسى في تاريخ الإنسان والعالم.

فنرى كيف تسيطر السطحية والأمية بسرعة على العالمين الإسلامي والمسيحي، وتوجه ضربات مهلكة ومدمرة للفكر، وتمنع نمو المجتمعات والأمم؛ لذلك فإن موضوع التفكير بالآيات القرآنية والذي عبر عنه القرآن بالتدبر يعتبر الطريق والأسلوب الأفضل لمحاربة هذا الجمود والتحجر، وإذا كان من المحتمل أنه لم يتم الكشف عن معاني بعض الآيات بشكل كامل إلى يومنا، فإن هذا يعتبر في حد ذاته دليلاً على أن الإسلام قد نزل كدين عالمي متحرك، ونظرة مستقبلية لتاريخ الإنسان. ونحن اليوم نمتلك معرفة وعلمًا في بعض آيات القرآن الكريم لم تكن متيسرة في القرون الماضية، وهذا دليل على ضرورة المزيد من التفكير والبحث وهو كـ " ألف كأس في عروق العنب لم تعصر بعد "، ولا يعتبر التهرب من التفكير واختيار الخمول الفكري تحريرًا للنفس والروح من الأسئلة العميقة المعاصرة.

تحولت مدرسة " جنديشابور" الإيرانية في العهد الساساني إلى ملتقى للعلماء والفلاسفة والأطباء وحتى رجال الدين الذين لم يجدوا مجالا للفكر والإبداع في الإمبراطورية الرومية بسبب الاستبداد والتضييق الذي كان سائدًا، فهاجروا إلى إيران وراحوا يدرسون ويحققون في مدرسة «جنديشابور» التي يمكن القول إنها كانت تمثل في تلك المرحلة الزمنية أحد أهم المراكز العلمية في العالم.

وإذا لم تستطع الحوزة العلمية استيعاب هذا التعدد في الآراء المختلفة والإجابة عنها، فعلى الأقل تتحول إلى مركز للإبداع النظري والفكري والنقدي، إلى جانب طباعة ونشر آخر ما توصل إليه الفكر الإسلامي، وإذا لم نبادر إلى ذلك، فلا شك أن بلدًا آخر سيقوم به، عندها سنختار أسهل الطرق في المواجهة بالإهمال والشطب، مما يؤدي إلى تراجع الفكر الديني في إيران، وتتراجع درجة تأثيرنا في العالم الإسلامي إلى الحد الأدنى لها، والأهم من ذلك أننا سنفقد قدرة الإجابة عن الأسئلة والإشكاليات المعاصرة.

بالعودة إلى سياق الكلام: هل علينا مواجهة النص كما فعل قاضي البصرة، وأن نضع جميع الأمور المختلفة فيما بينها في إطار كليّ ومفهوم واتجاه وغاية متماثلة ومتشابهة؟ أم نستطيع القيام بالبحث عن الباطن؟ بتعبير آخر هل النص المقدس ـ والمقصود به هنا القرآن الكريم ـ هو كتاب نستطيع أن نقرأه ونتوصل إلى معرفة مقصوده ومراده، أم أنه نص مغلق وغير قابل للفهم أو على الأقل بعيد عن متناول الأشخاص العاديين :

١ ـ إن الله ـ تعالى ـ عرف القرآن على أنه كتاب ميسر للعلم ومعرفة الطريق، وقد فسر العلامة الطباطبائي هذه السهولة بأنها متناسبة مع فهم القرآن.

وتسهيل القرآن هو من أجل أن يلقى لدى السامع من العامة والخاصة سهولة في فهم مقاصده؛ ولذا فهو بسيط وعميق في آن واحد. كل واحد يفهم منه شيئًا على قدره، ومن الممكن أيضًا أن يكون المراد منه القول بأن حقائقه العالية ومقاصده الرفيعة أعلى من أفق الفهم العادي، لكنها تلقى إلى العامة في قالب من الجمل العربية تساعدهم على الإدراك". [٥]

ويرى الإمام الفخر الرازي أيضًا أن القرآن كتاب سهل بسبب الحكم التي فيه[٦] أي أن البحث عن الحكم في القرآن ليس أمرًا صعبًا.

أما الشيخ الطوسي في " التبيان " فيرى أن الله ـ تعالى ـ أقسم أنه أنزل القرآن من أجل " الذكر ". ويفسر التيسير بمعنى التسهيل، أي الطريق التي لا يواجه الإنسان مشقة أو صعوبة في طيها. وسهولة القرآن هي من باب أن لديه " حسن البيان " والبرهان على ذلك الحكم العالية والمعاني الدقيقة التي فيه، وقد أنزلها الله بعيدة عن الغموض.[٧]

ولا بد من ملاحظة التكرار والتأكيد الدائم في كلام الله على سهولة القرآن التي وردت في الآيات ١٧ و٢٢ و ٣٢ و٤٠ من سورة القمر، إضافة إلى آيات أخرى أكدت على سهولة القرآن الكريم للتذكير والتبشير والإنذار.

(القرآن المجيد، سورة مريم، الآية ٩٧. سورة الدخان، الآية ٥٨)

لقد جاء التعبير عن القرآن المجيد ولغته بـ ﴿ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾، انظر سورة النحل، الآية ١٠٣. وسورة الشعراء، الآية ١٩٥﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾.

٢ ـ لقد عبر عن القرآن الكريم بـ " النور " و" المبين " (القرآن المجيد، سورة المائدة، الآية ١٥ وسورة يونس الآية ٦١، وسورة يوسف، الآية ١)..

وعندما يعرف الكتاب نفسه بهذه الكلمات، فكيف يمكن القبول بعدم قدرة المسلمين على إدراك أنه أنزل من أجل هدايتهم؟ أو عدم القدرة على بناء علاقة مع هذا الكتاب دون وسيط أو واسطة؟ بلا شك أن سهولة القرآن وبساطته لا تتناقض مع الاعتقاد بعمقه. بل إن بمقدورِ أي قارئ أو مفسر أن يستفيدا منه؛ لأنه محيط لا نهاية له. وإن مجال التفكير والسير بين قممه المعرفية ممكنة دائما.

٣ ـ عندما يواجه القارئ أو المفسر النص القرآني، فإن أهم مسألة قد يشاهدها هي أن القرآن الكريم كتاب للتعليم والإرشاد الحياتي، وأنه ليس نصّا نادرًا أو مخصصّا لمجالس الذكر أو التبرك أو الاستخارة والقراءة السطحية في مجالس العزاء.

يشير آية الله (معرفت) الذي يعتبر من العلماء المتخصصين بالقرآن، وله كتاب مهم في علوم القرآن هو" التمهيد في علوم القرآن، " في حديثٍ مع مجلة "زائر" إلى عدة ملاحظات مهمة حول كيفية التعامل مع القرآن فيقول: "أعتقد أنني وأمثالي من المقصرين إلى حد ما؛ لأنه ليس لدينا شيء نقوله للشباب. لأنك إذا فتحت دكانًا دون بضاعة، أو أتيت ببضاعة لا مشتري لها، ليس لك الحق أن تقول: لماذا لا يأتي إليك المشترون؟ يجب أن نكون جميعًا من أهل الإبداع، فإذا لم يكن لدى المفسر أي إبداع، فلا يتوقعن أن يتبعه أحد، وإن الطلب القليل دليل على سوء العرض، فالعرض اللافت والكامل هو الذي يجلب المشتري إليك، وأعتقد أن الإشكال الذي نواجهه يكمن في أسلوب العرض، فإذا ما قمنا بعرض القرآن بشكل صحيح، فإنني على ثقة بإمكانية جذب الشباب

اللامبالي وغيرالمهتم. وما قمنا به حتى الآن فقط هو تقديم القرآن على أنه كتاب مقدس ومبارك، كتاب يجب رفعه على الرأس في إحياء ليالي القدر وقراءته في المجالس، حتى أننا روجنا قراءته بقصد الثواب، وهذا النوع من التقديم للقرآن ليس صحيحًا. وهو مفيد مع العجزة الذين يسعون وراء قصر في الجنة. أما الشاب فإنه يبحث عن منزل في هذه الدنيا ويقول اتركوا قصر الجنة لما بعد، ويجب الاعتراف أن القرآن هو قطب في المعرفة، وأن المعارف القرآنية واقعية.

إن القصص القرآني ليس أسطورة، وتعاليمه توفر للفرد سعادة الدنيا والآخرة، وتروي الأرواح العطشى للباحثين عن الحقيقة، وعندما نقدم أو نعرف القرآن بهذا الأسلوب نكون قد اتبعنا الطريق الصحيح شرط الوفاء بالوعد، أي بمعنى أن نستطيع الإجابة في مواجهة سؤال قد يطرحه شاب على معلمه حول ما تقدمه إحدى الآيات من أمور تتوافق مع شروط حياته الحالية؟ ".(٨)

يمكننا الاستنتاج من كلام آية الله "معرفت " أن على المفسر البحث عن الإبداع، على أن يكون إبداعه تلبية لأسئلة معاصرة لدى جيله أو جيل الشباب. هذا الرأي يستدعي ظهور قراءات متعددة في أزمنة مختلفة تأخذ بالاعتبار شروط ومقتضيات العصر، وعندما يقرأ المفسر النص ويفسره، فإن أثر عصره يبرز واضحًا فيه، وهذا الأثر لا يعد عيبًا أو نقصًا في عمله، بل إنه يفتح افق الاستفادة من القرآن الكريم. نأمل في " تفسير جديد" يتناسب مع مقتضيات الزمان والمكان، ومن الممكن أن نرى في عصرنا كلامًا جديدًا، لكن مع مرور الوقت يفقد اعتباره وقيمته.

لقد حمل حامد أبو زيد هذا الهم أيضًا كواحد من المفكرين والباحثين الإسلاميين القائلين بالتأويل، وهو يعتقد أن القرآن الكريم كـ " نص" و "التأويل " يشكلان بعدي الحضارة. وإذا أردنا أن نحدد خصائص الحضارة الإسلامية، فيجب أن نقول: إن الحضارة الإسلامية هي حضارة "النص" وحضارة " التأويل ". كما نسمي حضارة مصر القديمة "حضارة ما بعد الموت " وحضارة اليونان " حضارة العقل ".(٩)

لكن من اللحظة التي تحول فيها القرآن الكريم من "كتاب تأويل" وصانع حضارة إلى كتاب لا يجوز التفكير حوله، ومن اللحظة التي ابتعدنا فيها عن إمكانية التفكير حوله وجعلناه وسيلة للزينة، انتقل المسلمون إلى موقع المنفعل أو المتأثر. لقد كتب أبو زيد يقول: إنه عندما يتم الحديث عن القدس والمسجد الأقصى، فإن علماءنا - علماء مصر الرسميين - يشيدون بالسلام مع إسرائيل، أما عندما يتعرض مفكر ما لحديث الذبابة، فإن الكل يثور ويغضب ويسعى لتجييش كل الدنيا ضده. أليسوا هم العلماء أنفسهم الذين كانوا يكتبون ويتحدثون حتى الأمس عن أن الإسلام دين الاشتراكية والعدالة الاجتماعية، والآن في عصر الانفتاح يعتقدون أن الله فضل أناسًا على أناس، وليستغل بعضهم البعض الآخر؟(١٠)

أما المفكر الإسلامي السوداني الدكتور حسن الترابي فقد انتقد في كتابه «الشعائر الدينية وأثرها في الحياة العامة» التعامل الشكلي والتشريفي مع القرآن الكريم والذي يجعل منه صنمًا مقدسًا، وبالتالي دون فعالية أو تأثير في المجتمع الإنساني، وكأن القرآن تسجيل صوتي خزنت فيه الأصوات والعبارات، وإن حافظ القرآن أيضًا كالحمار يحمل أسفارًا يتلوه ويحفظه دون أن يتدبر فيه أو يدرك ما به. (١١)

ولقد كتب الشهيد مطهري عن المفهوم الإبداعي في فهم القرآن الكريم بصراحة ودقة تميزه يقول: "لا تتصوروا أن معاني القرآن فقط تلك التي فهمها العرب في صدر الإسلام وأن علينا الأخذ فهذا الفهم وعدم وجود غيره. فهذا غير صحيح؛ لأن القرآن لم ينزل فقط لهم، بل لجميع البشر حتى يوم القيامة، وليس لأحد الحق أن يفسره طبقًا لميوله ورغباته، فللجميع الحق في أن يتدبروا القرآن، وأن يصلوا في تدبرهم إلى فهم جديد لم يصل إليه القدماء في تدبرهم، وقد ورد حديث في الكافي يقول: إن الله - تبارك وتعالى - يعلم أن أناسًا سيأتون في آخر الزمان راسخين في العلم.(١٢)

يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل الله - تعالى - ﴿قل هو الله

Obeikan.com

أحد...﴾أي بمعنى أنهم يسعون للدخول في عمق المسائل، وهذا ما يسوغ نزول الآيات الواردة في أول سورة الحديد وسورة التوحيد والآيات الأخيرة من سورة الحشر."(١٣)

والشهيد مطهري في كلام له يعتبر القرآن الكريم كالطبيعة التي تزداد معرفته وعلمه بها مع مرور الزمن: " إن تاريخ الإسلام والقرآن يشير إلى أنه بعد مرور كل قرن عليهما، يأتي أناس في القرن التالي يقدمون فهمًا أفضل من السابق، كمثل الطبيعة التي يزداد فهم الإنسان لها مع مرور الزمن".(١٤)

وهذا الفهم والمعرفة العميقان والواسعان يستدعيان أن نسقط ـ بصورة ما ـ بعد مرور قرون أو عقود زمنية رأيًا أو كتابًا حول القرآن من دائرة الاعتبار. "وقلما نجد عالمًا معروفًا من علماء الإسلام أو من غيرهم لم تتغير آراؤه واعتقاداته بنسبة ثمانين بالمئة، بحيث نجد أن نصف اعتقادات ابن سينا قد أصبحت قديمة، وأن دكارت رجع عن كثير من أفكاره لدرجة ضحكه على بعض منها.

عندما يقرأ أحد كتاب (العدة) للشيخ الطوسي ويقارنه برسائل الشيخ الأنصاري، تتولد لديه قناعة أن العدة يجب أن يوضع في المكتبات، ويصنف على أنه أثر قديم فقد كل قيمة له ككتاب دراسي، لقد نسخ، وهذا يصدق على الشيخ الصدوق والمحقق الحلي أيضًا؛ إذ لا يمكننا العثور على أثر لأحد الكتاب بقي حيًا مئة بالمائة، حتى إن بعض العلماء قال كلامًا نسخ فيه كلامًا سابقًا له من تلقاء نفسه دون أن يكون قاصدًا لذلك، لكنه حدث." (١٥)

لهذا، وكما أشرت سابقًا، فإن الإمام الخميني يقول في تفسير سورة الحمد: "إنه إذا ما كنت قد تحدثت في كلمات عن بعض آيات القرآن الكريم، لا أدعي أن القصد هو هذا، أنا أتحدث بدلالة الاحتمال وليس بدلالة الجزم، ولن أقول إن المقصود هو هذا وليس غيره." (١٦)

إن الإبداع يتوقف وتموت القدرة الخلاّقة الفكرية في اللحظة التي يرى فيها رأي نفسه رأيًا قطعيًا وجازمًا، ويجب أن يحظى بدعم مختلف ومتنوع.

لا شك أن مثل هذه الأجواء تدفع المفكرين إلى كتمان ما لديهم، كما يسبب فقدان الأمن الاقتصادي اختفاء رءوس الأموال وبعض الأحيان تهريبها. وفقدان الأمن الفكري والإبداع يتسبب في تواري النظريات والآراء وانسحابها إلى الخفاء، مما يدفع بالمفكرين للهرب والهجرة. عندما يورد مطهري أسماء أشخاص - مثل ابن سينا والشيخ الطوسي والشيخ الصدوق - فقدت بعض آرائهم بعد مرور عدة قرون اعتبارها أو قيمتها العلمية، فكيف لمفكر محترم أن يتوقع خلود آرائه إلى الأبد، وأن يتحلق أهل الرأي حول نظرياته، ويدفع القضاء بالتضييق على أحد الأشخاص؛ لأن لديه رأيًا آخر وقراءة أخرى. وخلال زيارة جامعية لي إلى سوريا وبالتحديد إلى اللاذقية، وفي لقاء مع جامعيين هناك استشهدت بأبيات لأبي العلاء المعري يقول فيها :

في اللاذقيـة ضجـة   ما بين أحمد والمسيح

هذا بناقـوس يـدق   وذا بمأذنـة يصـيح

كل ينـادي ربـه   يا ليت شعري من صحيح

دون شك، إن المسلمين يعتقدون أن الأذان حقيقة، وأن المسيحيين يتعلقون بصوت الناقوس، وكل واحد منهم يفتش أو يبحث عن الحقيقة، وكلام أبي العلاء هنا يشكل إشارة إلى أن الاختلاف في القراءات الدينية في بعدهاالديني الخارجي كان مطروحا قبل نحو ألف عام.

وفي جلسة مع اتحاد الكتاب العرب في مدينة حلب، جرى النقاش حول مجموعة من الأفكار تشكل نقطة توافق بين المفكرين المسلمين، أبرزها إشكالية العلاقة بين الفكر الديني وقضايا العالم المعاصر، الفكر الديني والتوجه القومي، الفكر الديني والعولمة.

ومن خلال تصفحي لعناوين بعض الكتب في معرض أقيم في جامعة حلب، توقفت أمام بعضها الذي يتعلق بموضوع القراءات، وهي كتب تدلل بوضوح على أن موضوع القراءات وكيفية تفسير وتأويل النص والوصول إلى حقيقته أصبح لها

مكانة ملحوظة في العالم الإسلامي المعاصر، وخصوصًا في أدبيات المفكرين في الدول العربية؛ لذلك لا يمكننا الابتعاد والبقاء على الهامش أو الساحل.وهذه بعض من العناوين التي استوقفتني :

(١) علي حرب، وكتبه الثلاثة بعنوانها العام : النص والحقيقة.

أ) نقد النص.

ب) نقد الحقيقة.

ج) الممنوع والممتنع، نقد الذات المنكرة (الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٠م)

(٢) محمد مفتاح، وكتابه : المفاهيم، معالم نحو تأويل واقعي (١٩٩٩م).

(٣) حسن قبيسي، المتن والهامش (١٩٩٧م).

★ ★ ★

٤ ـ سبقت الإشارة إلى أن القارئ عند قراءته للنص، فإنه يواجه في البداية ظاهر النص، والبعض كان وما زال يعتقد أن القارئ أو المفسر لا يستطيعان أن يفرضا تفسيرًا على النص من خارجه، وأن ظاهر النص هو الملاك والمعيار للحكم؛ ولأن الموضوع هو القرآن الكريم بما أنه نص مقدس، فإن أي تفسير بالرأي يوجب العقاب والعذاب الأخروي. أما القارئ أو المفسر فلهما الحق في أن يبحثا ويفكرا في :

١ ـ العبارات.

٢ ـ الإشارات.

٣ ـ اللطائف.

٤ ـ الحقائق أو الدقائق.

في إطار البحث عن الحقيقة.

وقد قسم الإمام الصادق الآيات القرآنية حين قال: " كتاب الله ـ عز وجل ـ على أربعة أشياء: علىٰ العبارة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء ".[١٧]

وقد وردت في بعض الروايات كلمة دقائق مكان كلمة حقائق، وهذا ليس تقسيمًا خاصًا للقرآن.

وينقل (هنري) كوربون في كتابه "الإسلام الإيراني" عن سويدنبورغ اعتقاده "بما أن هناك ثلاث سماوات، عليا ووسطى وسفلى، فإن هناك ثلاثة تأويل للكتاب المقدس : معنى قدسي، ومعنوي، وطبيعي، فالمعنى الطبيعي هو نفسه المعنى الظاهري، (الذي نسميه المعنى الأدبي للنص) والمعنوي هو المفهوم والمعنى الباطني للنص وإدراكه عمل صعب لكنه ممكن. المعنى القدسي وهو فهم باطن الباطن، وإدراكه غير ممكن لنا نحن البشر الفانين. وبرأي سويدنبورغ أن المعنيين - القدسي والمعنوي - حاضران في المعنى الطبيعي، كما أن الواقعية السماوية وبمساعدة الحادثات المعنوية تنعكس على الحياة الطبيعية".[١٨]

وبتعبير مولاي (جلال الدين الرومي) فإن القرآن مثل السفرة الكاملة، التي يستطيع أي مَنْ كان أن يأخذ نصيبه وحصته منها، بحيث لا يبقى ضيفًا بلا نوال، ويجد كل إنسان غذاءه الخاص به مثل القرآن الذي هو بمعناه سبعة أبطن، للخاص والعام مطعم من داخله.[١٩]

إن المراحل التي ذكرتها والتعبير الذي استعمله الإمام الصادق، مشابهان لمراتب ومراحل الظاهر والباطن اللتين جاءتا في رواية نبي الإسلام (ﷺ)، وهي تؤكد على أنه لا يصبح الإنسان - قارئ النص - أسيرًا للظاهر. لا يعبد الصورة، وبتعبير مولاي: هل يمكن الاكتفاء فقط بالظاهر للحكم على البشر؟

فلا تنظر يا بني من القرآن إلى ظاهره، فإن الشيطان لا يرى من ابن آدم إلا أنه من طين./ والقرآن مثل شخص الإنسان، صورته ظاهرة لكن روحه شديدة الخفاء./ ويكون المرء للمرء عمًا وخالاً لمائة سنة، لكنه لا يرى من أحواله مثقال ذرة ![٢٠]

وكما هو الوجود الإنساني، ستارة خلف ستارة، أو كما عبر عنه " لويجي بيرآندللو" الإنسان ينضوي في مدار عدد من الألوان " الواحد، واللا شيء، والمئة ألف " وفي كل يوم أو لحظة أو نفس يأخذ لونًا جديدًا، فكيف يمكن الاعتقاد أو القبول بأن كتاب الله هو نص صامت وجامد وعلى درجة واحدة أو مستوى واحد، وإن كل حقيقته تتجلى في ظاهره؟

هناك تناسب بين كلام الإمام الصادق حول المرحلة الرابعة أو الحقائق التي يعدها خاصة بالأنبياء وكلام مولاي (جلال الدين الرومي) الذي يعتقد بأن كلام القرآن أو حرف القرآن الذي هو ظاهره يوجد تحته "باطن قهري "، وتحته باطن ثانٍ و باطن ثالث يضيع فيه العقلاء؛ وفي النهاية :

الباطن الرابع من القرآن لم يدركه شخص قط، ولا يعلمه إلا الله الذي لا نظير له ولا ند.

في النتيجة الاعتقاد أن باستطاعة الإنسان الوصول إلى فهم الباطن الثالث للقرآن الكريم.

٥ - إن بامكان القارئ الوصول إلى الباطن من خلال الظاهر، ومن الباطن الأول إلى الباطن الثاني ثم الثالث، أي بمعنى أن البحث عن حقيقة النص ليس بالأمر المستحيل أو الممتنع. على الرغم من أن بعض الفلاسفة المعاصرين قد تحدث باحتياط وحذر، وأحيانًا بإنكار، حول إمكانية التوصل إلى "الحقيقة " من خلال النص. واعتبروا النص كمثل البصلة والقارئ يبذل الجهد للعبور من طبقة إلى طبقة، وفي النهاية يرى أو يجد أن حقيقة البصل هي تلك الطبقات التي تغطي بعضها البعض الآخر وليس هناك مركز أو حقيقة متصورة، بلا شك إن مثل هذا التفسير أو التوقع قد يكونان واقعيين في المجال الأدبي ونصوصه وبعض الروايات الحديثة. لكن ذلك غير مقبول فيما يتعلق بـ "نص قدسي " مثل القرآن الكريم.

إن أي شخص مؤمن - مسلمًا كان أم مسيحيًا أم يهوديًا أم..... - ويؤمن بالله، ويعتبر القرآن أو العهد القديم أو العهد الجديد كلامًا إلهيًا، فإنه يرى الكون أو الوجود على أنه وجود ذو معنى، وأن جوهر وجوده هو الله، وأن كتابه ليس سوى منظومة تربط بين جوهر روح الإنسان وجوهر الوجود، وعليه فكيف يمكن اعتبار " الحقيقة " أمرًا وهميًا؟ من الممكن أن يمتلك شخص ما رأيًا آخر حول الوجود وظواهره وخالقه - الله - أو حول الوحي.

أي أن يعترف بوجود الله لكنه ينفي دوره في الوجود، أو أن لا يقبل بالوحي أساسًا، فمن البديهي أن الحديث معه عن حقيقة النص أو مراد النص لن يوصل

إلى نتيجة. وبتعبير آخر: إن قراءة شخص متدين للنص المقدس تختلف بأسلوبها عن قراءة شخص لا يعتقد به. إن شخصًا يتخذ من القرآن مرشدًا ويتلوه على أنه كلام الله، فإنه يبني علاقة معه بأسلوب يختلف عن أسلوب شخص يقرأه انطلاقًا من أنه نص أدبي، وإن قراءة القرآن الكريم من قبل شخص يسعى لدراسة تاريخ وثقافة سكان شبه الجزيرة العربية في مرحلة صدر الإسلام وفهمه له واستنتاجه تختلف عن قراءة من يسعى لاستخراج هوية ومعنى لحياته ونفسه من ثنايا آياته، وإن فلسفة الدين والنبوة تنتفي إذا لم يكن هناك أي تصور لمقصود أو مراد أو حقيقة النص المقدس. إن اختلاف مفسري النص المقدس حول بعض الآيات في المراحل والفترات التاريخية يمكن تفسيره عمليًا في بعدين :

أ) الجميع كان يسعى للبحث عن الحقيقة.

ب) كل واحد وبالتناسب مع شروط ومقتضيات الزمان والمكان، واستثارة النص. القدرة على التفكير، الصبر على البحث. والتوقعات من النص، والأحكام المسبقة التي لديه، قد توصل إلى درجة من درجات الحقيقة، ولم يدع أي منهم التوصل إلى كل أو كامل الحقيقة، واعتبر أن كلامه يمثل نقطة النهاية وتفسيره خاتمة التفاسير.

وبتعبير حافظ :لا أحد يعلم أين بيت القصيد، إلا أن هناك جرس قافلة يدلنا عليه.

ونبي الإسلام (ﷺ) أيضًا كان يسمع صوت حقيقة الوحي، كصوت النغمة الآتية من الجرس ! وقد سأله الحارث بن هشام: كيف ينزل عليك الوحي؟ فقال (ﷺ): مثل صلصلة الجرس [٢١]

" إن صوت القرآن أقرب إلينا أكثر من كل الأصوات، ومعروف أكثر حتى من صوت النبي (ﷺ) وأهل البيت، وليس هناك كلام أحلى وأقرب إلى القلوب من كلام القرآن، وهو معروف حتى لتكاد تقول إنه قد تردّد عليك في أحد الأيام، أو كأننا قلناه في يوم ما". [٢٢]

أي مذهب تأويلي بمقدوره تفسير هذا البعد المشع من التلاقي بين القارئ

والنص؟ تلاق لا يسعى فيه القارئ إلى إنكار ذاته في سبيل الوصول إلى مراد النص، ولا أن يعمد إلى فرض رؤيته عليه متخذاً منه ذريعة ووسيلة لقول ما يريد.

فالقارئ وعبر البحث العلمي المترافق مع العقلانية والتدبر يصل إلى نقطة يدرك فيها أن النص يتحدث عن حقيقته، وأنه يبحث عن التصوير الحقيقي لنفسه فيه عن مراد الناص. وبما أن البشر لم يخلقوا في قوالب أو عاجزين، لذلك فإن ظرفية واستطاعة كل واحد منهم تختلفان عن بعضهما البعض؛ لذا فإن من البديهي أن تختلف قراءتهم أو تلقيهم للقرآن الكريم. قد لا يكون اللفظ أو التعبير الذي قد نستعمله مهمّا، فإذا كنا مثلاً نرى أن توحيد الراعي لا يختلف عن توحيد موسى، وأن الاختلاف بينهما هو فقط في قوة وضعف المراحل والمراتب، وأن توحيد الراعي هو في المرحلة الدنيا وتوحيد موسى في المرحلة العليا، وتوحيد الخضر في المرحلة الأعلى. أو الاختلاف بين توحيد سلمان وتوحيد أبي ذر.

وانطلاقا من ذلك نعمد إلى تفسير وتسويغ الاختلاف في القراءات أو الاستنتاجات، أي أن البعض وصل إلى مراحل عليا من المعرفة والبعض الآخر ما زال في وسط الطريق. وفي هذه الحالة لن يكون هناك حاجة أو مسوغ للتكفير والتفسيق والهتك والطرد. فالكل كمثل المتسلقين الذين يسعون للوصول إلى قمة الجبل، أو كما قال (بهار) «يضعون قدمًا على قبة الكون»، أي أن يكون البعض في محيط القمة ويلفه الضباب والغيم، والبعض الآخر في وسط الطريق، وقسم انطلق من سفوح الجبل صعودا. فهل من المنطقي والمسوغ أن يعمد الفريق الذي ساعدته الظروف وقطع مسافة أكبر لتأنيب الفريق الذي تأخر، ويتهمه بسلوك طريق غير صحيحة أو أنه انحرف عن الطريق الصواب مما سبب تأخره ؟! وذلك دون النظر إلى الظرف والجهد والسعي المبذولين.

الهوامش

(١) الفيض الكاشاني، الصافي، طهران، المكتبة الإسلامية، ١٣٩٣ قمري، ج١، ص ٢٨ و ٢٩.

(٢) الكليني، أصول الكافي، ج ٢، ص ٥٩٨.

(٣) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، بيروت، دار ابن كثير، ١٩٨٧، ج ٢، ص ١١٨٩ إلى ١١٩٦ (الباب ٧٧).

(٤) حامد أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨، ص ٢١ و٢٢.

(٥) الميزان، ج ١٩، ص ١٣٤ و ١٣٥.

(٦) الإمام الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٤٣.

(٧) التبيان، ج ٩، ص ٤٤٩ و ٤٥٠.

(٨) مجلة "زائر" الشهرية، الحضرة الرضوية المقدسة، عدد رقم ٩، شهر "آذار" ١٣٧٩.

(٩) مفهوم النص، ص ٩ و ٢١٩.

(١٠) نفسه، ص ٢.

(١١) صحيفة الشرق الأوسط، الجمعة ٢٠٠١/١٢/١٤، العدد ٨٤١٧، ص٢٢

(١٢) أصول الكافي، ج ١، ص ٩١.(١٢) أصول الكافي، ج ١، ص ٩١

(١٣) الشهيد مطهري، الخاتمية، ص ١٦٢ و١٦٣.

(١٤) نفسه، ص ١٦٠.

(١٥) الشهيد مطهري، الإسلام ومقتضيات الزمان، منشورات صدرا، ص ٢٦٢.

(١٦) الإمام الخميني، تفسير سورة الحمد، ص ٩٦.

obeikan.com

(١٧) بحار الأنوار، ج ٧٥، باب وصايا الصادق، ص ٢٧٨.

(١٨) بابك أحمدي، بناء وتأويل النص، طهران، دار مركز، ١٣٧٠، ج ٢، ص ٥٠٣.

(١٩) ـ المثنوي (نيكلسون) الديوان الثالث، البيتان ١٨٩٦ و ١٨٩٧

(٢٠) نفسه، الأبيات ٤٣٤٧ إلى ٤٣٤٩

(٢١) بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٠ و٢٦١ وج ٥٦، ص ٢١٤. وقد نقل ابن خلدون الرواية نفسها في مقدمته. انظر : ابن خلدون، المقدمة، ترجمة محمد بروين كنابادي، طهران مركز الترجمة والنشر، ج١، ص ١٧٤.

(٢٢) مصباح الهدى، محاضرة الحاج الميرزا محمد إسماعيل خان أحمد دولابي، جمعها مهدي طيب، طهران، دار السفينة، ١٣٧٩، ص ٤٣٦.

★ ★ ★

Obeikan.com